

فمحال أن نرجو منهم أن يكون لنا عظماء الرجال .. وشر من تركهن جاهلات بالدين، إلقاءهن حيث يربين تربية تنفرهن من الدين أو تحقره في أعينهن؛ فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن. وقد أسس ابن باديس عدة مدارس ومعاهد لنشر فكره، كما أسس أيضاً: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، كان ابن باديس رئيساً لها وعن أهدافها يقول ابن باديس: إن الجمعية يجب ألا تكون إلا جمعية هداية وإرشاد لترقية الشعب من وهدة الجهل والسقوط الأخلاقي إلى أوج العلم ومكارم الأخلاق في نطاق دينها الذهبي وبهداية نبيها الأمي. وقد استعان ابن باديس ورفاقه بأدوات العصر لنشر دعوتهم فإلى جانب الدروس والمحاضرات والخطب اتخذوا من الصحافة منبراً آخر لبيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة: فقد شارك ابن باديس في تأسيس جريدة (النجاح) ثم اقتحم ابن باديس ميدان الصحافة بنفس العزم والجد الذي عرف به بجريدة (المنتقد) مفتتحاً عددها الأول بقوله بسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظم المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون، وخلفت (المنتقد) (الشهاب) ثم أسست جريدة (الإصلاح).

الزاهد الصارم

التواضع والتقشف: اشتهر رحمه الله بالزهد والانصراف عن متاع الدنيا ورغم أن عائلته كانت من سراة قومه إلا أنه في شخصه كان متقشفاً مخشوشاً متواضعاً تواضع العلماء العارفين. يروي أنه خرج من مقصوره بجامع (سيدي قمرش) بقسطنطينية ذات يوم فطلب من أحد أصدقائه أن يبحث له عن يشتري له نصف لتر من اللبن وأعطاه أتية، فأراها ذلك الصديق فرصة لإكرام الشيخ، فذهب بنفسه إلى الشؤاء واشترى له صحناً من اللحم المختار، وعاد إلى الشيخ وهو يكاد يطير من شدة الفرح. ولما قدمها إليه استشاط غضباً، وقال له في لهجة شديدة صارمة: ألا تعلم أنني ابن مصطفى بن باديس، وأن أنواعاً مختلفة من الطعام اللذيذ تعد كل يوم في بيته ولو أردت التمتع بالطعام لفعلت، ولكن ضميري لا يسمح لي بذلك، وطلبتني يستقون الخبز بالزيت وقد يأكله بعضهم بالماء.

الحلم والتسامح: يروي أن إحدى الجماعات الصوفية المنحرفة التي ضاقت ذرعاً بمواقف ابن باديس أوعزت، بتنسيق مع سلطات الاحتلال، إلى نذر من أتباعها باغتيال الشيخ عبد الحميد ظناً منها أن في اغتياله قضاءً على دعوته، غير أن الغادر الذي هم بهذه الجريمة لم يفلح في تنفيذها، ووقع في قبضة أعوان الشيخ، وكانوا قادرين على الفتك به إلا أن أخلاق الإمام العالية جعلته يعفو، وينهى أصحابه عن الفتك به ممتثلًا قول النبي (ص): رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. الشجاعة في الحق: لئن كان الشيخ ابن باديس في كثير من مواقفه ليثاً من غير ضعف فهو في الحق صارم.. وحين تخور العزائم فهو شجاع شجاعة من لا يخاف في الله لومة لائم، ولا غطرسة ظالم متجبر. تجسد ذلك في مواقف عدة منها: موقفه مع وزير الحربية الفرنسي (دلاديه) أثناء زهاب وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس في 18 يوليو 1936: حيث هدد الوزير الفرنسي الوفد الجزائري وذكرهم بقوة فرنسا وبمدافعها بعيدة المدى قائلاً: إن لدى فرنسا مدافع طويلة، فرد عليه ابن باديس: إن لدينا مدافع أطول فتساءل دلاديه عن أمر هذه المدافع؟ فأجابه ابن باديس: إنها مدافع الله. الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق: سئل رحمه الله، مرة عن مسألة فقهية فأفتى فيها بغير المشهور، ولما تبين له الصواب رجع إليه ونبه على ذلك الخطأ وأورد الصواب في مجلة (الشهاب)، وقد كان يكفيه أن يوضح تلك المسألة للسائل فحسب، لكنه علل صنيعه قائلاً: أردت أن تكون لكم درساً في الرجوع إلى الحق. حسن استغلاله للوقت: كان مدركاً قيمة الوقت وضرورة استغلاله والاستفادة من لحظاته، وتظهر نظره واضحة في تفسيره لقوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا). الإسراء آية 78. فيقول: في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لترابط أمورنا بالأوقات

ونجعل لكل عمل وقته، وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته وتطرد أعماله ويسهل عليه القيام بالكثير منها. أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لابد أن يضطرب عليه أمره ويشوش باله، ولا يأتي إلا بالعمل القليل ويحرم لذة العمل وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه، وما كان يأتي به من عمل على قلته وتشوشه بعيداً عن أي إتيان. ومن أقواله أيضاً: عمر الإنسان أنفس كنز يملكه و لحظاته محسوبة عليه وكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها، فالرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين فعمّر وقته بالأعمال، والسفيه من أساء التصرف فيه فأخلى وقته من العمل. بهذه النظرة الصائبة للوقت نجح ابن باديس في استغلاله أحسن استغلال فكان يلقى من الدروس في اليوم الواحد ما يعجز عنه غيره. يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ويظل طيلة نهاره يعلم طلبته الدين وعلوم العربية ولا يقطع دروسه إلا لصلاة الظهر ولتناول الغداء ثم يستمر إلى ما بعد العشاء!! وكان رحمه الله مع أخذه بكل ما يستطيع من الأسباب في تأدية رسالته يلتجئ إلى الله بثقة لا توهب إلا لأولى العزم من الرجال.. ففي إحدى ساعات الشدة والعسرة قال لأحد طلبته: يا بني! إن جميع الأبواب يمكن أن تغلق أمامنا ولكن باباً واحداً لن يغلق أبداً، هو باب السماء.. وفي مساء يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق 16 أبريل 1940م أسلم ابن باديس روحه الطاهرة لبارئها متأثراً بمرضه بعد أن أوفى بعهده وقضى حياته في سبيل الإسلام ولغة الإسلام، وقد دُفن رحمه الله في مقبرة آل باديس بقسطنطينية بعد حياة أوفى فيها بعهده: إني أعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما وإنها لواجبات وإنني سأقضي حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن وهذا عهدي.

نبني على الماء ما لم نعد الأبناء

